صالح الرّحال

منذ أوّلِ هذا التّيمّمِ

ـ١ـ

هَذا السقوطُ المخيفُ
الذي زَلزلَ الأرضَ
وَالروحَ
هذا السقوطُ
أيُّها اللّيْلُ...
آنَ أنْ يُبعثَ المَيْتُ
في يَدهِ نَجمةٌ
وَالفضاءُ الحَنوُط
أيُّها اللّيْلُ..
مُنْذُ أوّل هذا التّيمُّمِ
وَالصلاةُ عَلى سُنَّةِ الخَوْفِ
وَالْعُقْمُ أدمنْتَهُ
وَالسكوتُ.
لَحظةً، يُفْتَحُ القبرُ
يَرتمي سُورُ «بَرلينَ»...
أوْ... تَجفُّ الحَياةُ.
يَا زماناً... يُجَمِّعُ اللّيْلَ
وَالليلُ سُورَتُنا، مَدُّنا
وَالمصيرُ المُحيطُ.

مُنذُ أوّلِ هذا الظلامِ المُخَيِّمِ
وَالروحُ ساكنةٌ رَمْهَا
وَالقنوطُ
كَمْ تَجَمَّعَ تحتَ نَعْشِ هذا الشَهيدِ
منَ الحَشْدِ
وَكَمْ بَعثَرَ الأماني لَقيطُ !
إنّنا نَجرعُ الشَوْكَ
وَالحُلمَ
وَالصَبْرُ ـ غَصْباً عَن الروحِ ـ رَاوَدَنا
وَالسيَّاطُ.

ـ٢ـ

زَهرةٌ يا صديقةَ العُمْرِ
أنتِ
تَعالَيْ إلى داخلي
وَانشُريني
كمَا شاءَ طيني
مِن الطينِ يَجمعُني
أوْ يُشكّلُ في يَدهِ
مَعْلَماً، خَارِطَهْ...

كُلَّ شَوْقِ الأقاليمِ.
كانتْ دِمائي إليْكِ
وَكانت تُرجّيكِ
ألاّ تكوني سوى «سُورةِ الزَلْزَلة».
وَأنتِ القَتيلةُ والمعضلهْ
وأنتِ النُشورُ
وأنتِ الصعودُ إلى الجُلْجلَهْ.
نَجْمةٌ تُراودُ أحْلامِيَ
الذاوياتِ
أمْ أنّني تصوَّرْتُ أحلامَ
مَيْتٍ
يُفَتِّشُ في الطينِ عَن دُودةٍ
مُهْمَلَهْ؟
كَفانا صُراخاً
كَفانا بُكاءً
كَفانا، الحَديثُ عَنِ المُشكِلَهْ !

ـ٣ـ

تَرَبَّصْتُ في دائراتِ الشكوكِ
وَقُلْتُ لِنَفْسي:

الصراطُ بَعيدٌ
وَأبعَدُ مِنْ رُؤيتي
وَأَقْرَبُ منها إليَّ
وأنتِ الرَفيقةُ في رِحْلةِ
الليْلِ
خِلْخالُكِ ـ الْجَلَّ وَصْفاً ـ
يُبَعثِرُني في سَديمي
يُجَمِّعُني في غيومي
فَأصعدُ كالغيمةِ المُطفأهْ
أُفَتِّشُ عَنكِ، وَعَن رَمْشِ عَيْني
وَألقاكِ، أنسى رموشي
وَأفتَحُ عَيني
على ذلك القَبْرِ.
وَالأرضُ خارطتي وَالزمانْ
وَأنتِ العَصيَّةُ،
ما مَسَّكِ المَوْتُ.
أوَّلُ الريحِ أنتِ
وَأنتِ المَسَارُ المُعبَّأُ بِالياسمينِ
وَضَوْءِ المَكانْ.
تَذكَّرْتُ كُلَّ السنينِ
التي كُنْتُ فيها
وأنتِ الأمانْ
وَيا مَعْشَرَ الفاتناتِ
اللواتي تَضمَّخْنَ بِالطيبِ
وَالزعفرانْ
صَبْوَتي أنْ أسَوِّرَ قَامَتَها
مِنْ شَرايينِ صَدْري
وَأجمعَ أشتاتَها
كَما جَمَعَتْ «عَشْتَروتُ» الهَوى
«بَعْلَ»ـها

ـ٤ـ

يا زماناً لِـ «لكِنعَانَ»
هذي الرياحُ السَمومُ
وَهذا المَدى المُرُّ
هذ التتارُ الضليلُ
يُصَلِّبُ الأنبياءُ وَالراسخونَ
ألْفاً
وَيُحمى المَغولُ!
يا إلهي!
أكُلُّ هذا الفَضاءِ مِنَ الشَمْعِ
وَالشَمْسُ شاحبةٌ والنخيل؟
سُبَّةٌ يا سُلالةَ كَنْعانَ
أنتِ
أم الدَّعِيُّ الدَّخيلَ؟
سيِّدٌ يَشربُ النَبيذَ
عَلى مَهلٍ
يَدَّعي أنَّهُ مُلْهَمٌ وَرَسولُ.
إنَّهُ البَيْتُ، «بَيْتُ إيلٍ»،
وَهذي الحِجارَةُ
خُرْبَتُهُ وَالأُفولُ.
يا إلهي!
هَلِ السماواتُ دَهْشَتُنا
أمْ أنَّهُ الفراغُ القتيلُ؟
وَإذا كَانتِ السماواتُ سَقْفاً
وَالأراضي قبورَنا
وَالرحيلُ،
فَلماذاً كُلُّ التَبَجُّحِ أنَّا
سَيْفُ «عَدْنانَ»
وَالشموخُ الأصيلُ؟

ـ٥ـ

إيهِ يا زهرةَ القلبِ
يا دمعةَ الأُقحوانْ
هَلْ غَامِضٌ مَسَّ رُوحَكِ؟
أضناكِ
وَأضنانيَ الطريقُ الطويلُ.
لَنا بَرْزَخٌ، سَنُفضي إلَيْهِ
و... لا، لَن يَدومَ
العويلُ.
أَعِدِّي لِباسَكِ والمِشْطَ
وَالكُحْلَةَ النَاطِقةْ.
هُناكَ على تَلَّةِ السِنديانِ
ارْقُبيني
سَأصرعُ كُلَّ المَسافاتِ
مَا بَيْنَنا
وَأمضي إلى سِدْرَتي....

ادلب ـ سوريا